أيام العروبة تبدأ فى سورية !

للدكتور عبد الوهاب بك عزام

سورية الكريمة العزيزة ، سورية الجميلة الجليلة ، سورية العربية الأبية ، سورية الشجاعة الجريئة المجاهدة الصابرة تغسل اليوم عنها العار ، وتستقبل الكرامة ، وتبسم للحرية بعد أن طال عبوسها للعبودية ، وتطوى صحيفة لمدوها سوداء لتنشر صحيفة لنفسها بيضاء ، وتختم جهاد المعتدين لتبدأ جهادا فى الحياة السعيدة المجيدة ، وتستأنف سيرتها العظيمة لتصل حاضرها الكريم ، وماضيها الخالد بمستقبلها الوضاء .

دمشق العتيقة الحديثة ، دمشق الماضية الحاضرة التى ثبتت للخطوب ثبات قاسيون ، وابتسمت للمحن ابتسام مروجها وجنانها

دمشق مجتمع الأحداث قد زخرت
فيهـــا كما اندفقت فى البحر أنهار

دمشق قد استدار لها الزمان ، ورد عليها الدهر مجدها المنشود ، فهى اليوم ظافرة فرحة تأسو جراحها ، وتعد للمستقبل عدتها . قد انجلت عنها الغمرات كما ينجلى النقع عن البطل المرزأ يعصب جراحه ولواء النصر فى يده .

مرزأ بتلاق الخطب منصلت تنشق عنه من الأهوال أجفان

ليت شعرى كيف الغوطة والربوة ودمّر والهامة اليوم ؟

أترى أشجارها تميل طربا ، وأوراقها تصفق فرحا ! وكيف قاسيون ذو القمة الجرداء والسفح الأخضر .

نسرى اللّوح منه عامة عُطُلاً لكنه ذنب الطاووس جرار

كيف قاسيون اليوم ؟ أتراه شمخ برأسه عزة ، بعد أن رمى عنه آثار الذلة . وحلق على الرياض فرحا فى هذا النهار ، بعد أن وقع كئيبا فى ذلك الليل ؟

وكيف بَرَدى ذو الفروع السبعة ؟ أهو اليوم جذلان مطرد يصفق ماؤه بنسيم الحرية ، وتمحو جريته الظلال البغيضة التى تراءت على صفحته سنى الاستعباد ؟

قال متعجبا : ما بالكم تسجنون أنفسكم هذا السجن الثقيل فى هذا اليوم البديع ؟

قلنا : قدر أهون من قدر . أليست حبسة الهواء هنا أهون من نار القضاء خارج الدار ؟

فضحك وهو يقول : أى نار قضاء ؟ إن القضاء ليخفق بالنسيم الجميل ، وإنه كما يقولون ليشفى العليل .

وتقدم إلى النافذة ففتحها ، وتقدم غيره إلى نافذة غيرها ففتحها ، فإذا بالنسيم كما وصفه جميل يشفى العليل !

ونظر بعضنا إلى بعض متضاحكين ، وقلنا ونحن خلاصة ذوى الرأى أن نجازف بالتجربة ، فننعم نصف النهار ونستريح من كل ذلك العذاب .

وطرافة القصة كلها فيما ساقه فيها الزعيم الكبير من العبرة وأحاطه بها من التهكم والفكاهة ، ولكنه قد جار على نفسه هنا وجار على أصحابه بعض الجور لأخذهم بجانب الخطأ وحرمانهم جانب الانتفاع بحق « الرأفة » فى الحكم أو بحق الصواب . فلو اتفق أن الهواء كان على عادته من الحرارة والغبار فى تلك الآونة لما كان بقاؤهم وراء النوافذ المغلقة خلوا من الرأى السديد أو بعيدا كلّ البعد عن وجه الصواب .

* * *

ونحسب بعد هذا أن الخروج من شم النسيم بأضحوكة واحدة أو بمفارقة واحدة فريضة لا فكاك منها لتحية العيد الذى يسمى بعيد الربيع وعيد الشباب والحب والجمال . وهل يستحق الربيع اسمه إذا تنزهت فيه الدنيا عن الأضاحيك والمفارقات ؟

وربما كان من مفارقاته الخالدة أننا نحن المصريين احتفلنا به زمنا إذ كان الاحتفال به — بين ظهرانينا — احتفالا بالحياة منا والخروج من بلادنا . وأننا قد وصلنا به ما تقدم من تاريخنا العريق كأنما كانت فترة بنى إسرائيل عارضا بين فصول الرواية الأبدية لا يدخل فى حساب المؤلف الخالد مؤلف التواريخ والأحقاب ، وقد كانت تلك الفترة العارضة صفحة متجاوبة الأصداء ، لا يخفت دويها المتتابع مع الزمن فى مسامع بنى آدم وحواء .

عباس محمود العقاد

وليتني أرى الآن جامع بني أمية هل نطقت جوانبه تسبيحاً وتهليلا ، وهل تهم قبة النسر بالتحليق كما يحلق الطائر الوحشي قطع الشرك أو انفتح عنه المحبس ! ؟

وكيف أبطال تاريخنا في المدينة وحولها ! كيف معاوية والوليد؟ وكيف نورالدين وصلاح الدين؟ وكيف الظاهر والعادل؟ وكيف أبطال الجلاد في عصرنا الذين نازلوا الباطل المدجج عزلا فزلزلوه حتى هدموه ؟

وليت شعري هل انبعث الأذان من قبر بلال في مقبرة الباب الصغير إيذانا بالفجر من هذا العهد المبارك ؟

* * *

وحلب الشهباء ، مدينة سيف الدولة والمتنبي ، حلب التي أمدت الثغور بأبنائها قرونا ، ودفعت الروم عن الشام عصوراً ، كيف جذلها اليوم ، وأين متنبيها ينشد قصائد المجد ليرويها الدهر؟

وكيف قلعة حلب اليوم وقد لفظت الذلة ، واعتزت بما فيها من آثار المجاهدين الأولين . لقد دخلتها أول مرة قبل خمسة عشر عاما ورأيت جنود السنغال فيها يخطرون ، وينهون ويأمرون فأنشدت وفي النفس ما فيها من حسرات :

سادات كل أناس من نفوسهمُ
وسادة المسلمين الأعبد القزمُ

فقد رفع اليوم عليها لواء الحرية ، ورحض عنها عار العبودية ، فثالت بناء جديداً ، ومرأى حميداً ، وكأن كل شيء فيها قد استحال! ليت شعري هل نطقت فيها الآثار الصامتة ، وضحك على بابها الأسد الباكي (١).

* * *

وليتني اليوم في حمص أقف في روضتها كما وقفت من قبل ، أستمد من ضريح خالد بن الوليد كل معنى جليل ! ليتني اليوم على قبر خالد أبشره أن الزمان قد استدار ، واستقلت الشام بأبنائها الأحرار ، فليصفق نهر العاصي طربا ، وليزهر الديماس فرحا فقد أقبل الربيع بربيع الحرية الناضر ، وعهدها الزاهر .

(١) في مدخل القلعة صورتان من الحجر لأسدين يقال إن أحدهما يضحك والآخر يبكي .

يادار هذا أوان السعد فاغتبطي لاعادك النحس بعد السعد يادار

وحماة المجاهدة ، هل تبدل أنين نعيرها غناء ، واستحالت دموعها في البساتين ماء ؟ ما أجمل غناء النواعير في حماة اليوم ! قد مضى عهد البكاء ، فليدم اللهم هذا الغناء .

وكيف أبو الفداء في قبره اليوم ؟ يا أبا الفداء لقد طال الهجود ، فقم وأضف إلى تاريخك هذا الفصل الجديد .

* * *

يا سوريتنا الجميلة الحبيبة ! حيا الله فيك كل مدينة وقرية ، ونضر كل دارة وبقعة ، وحياك السعد مطرداً مع الزمان ، دائراً مع السنين .

ورحم الله كل مجاهد أمدك بحياته ، وسقى ترابك بدمه ، وثوى في الأرض كلمة باقية في سطور تاريخك الخالد .

ونضر الله وجوه المجاهدين الأحياء ، الذين صبروا وصابروا ، وبسموا للخطوب السود في الظلام المكفهر حتى تبلج الصباح .

« فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا »

وحيا الله هذا الرئيس الأمين ، الطاهر القلب ، المبارك الناصية « شكري » شكر الله مساعيه ، وحيّا أصحابه الكرام ، وحيا كل من شارك في تحرير سورية بيده أو لسانه .

وبعد فيا سوريتنا العزيزة ، قد رفع الزمان الأعباء عن كواهل الأعداء فوضعها على كواهل الأبناء ، فليحملوا أعباء الواجب ، وليؤدوا تكاليف المجد ، وليبنوا مستقبلهم بأيديهم لأبنائهم ، وليعلموا أن حاضر العرب يؤمل فيهم ، وماضي العرب ينظر إليهم ، ومستقبل العرب ينتظرهم ، فليجمعوا القلوب والأيدي ، وليحسنوا البناء .

ألا إنه قد فتحت لهم صحائف في التاريخ جديدة ، فليجيدوا الكتابة في هذه الصحائف التي تخلد كل شيء .

إنهم يبنون أجيالا ، ويكتبون تاريخاً ، فلينظروا كيف بناء الأجيال وكتابة التاريخ .

يا سورية الجميلة ! إن أبناءك اليوم قد رجعوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

عبد الوهاب عزام